قصيدة المعتمد بن عبّاد بعد زوال ملكه

كان المعتمد حاكماً في قرطبة، جمع حوله الأدباء والشعراء والمثقفين، وعاش في عزة الملك، ورفاهية العيش، وبهجة الثقافة، وحام حوله الشعراء طمعاً في نواله، ورغبة في الاستئناس بمجلسه،وبلغ به الترف والبذخ مبلغاً عظيما ،ومما يروى في ذلك أن الملكة اعتماد زوجته وبناتها رأين نساءا من البادية قد شمرن عن سوقهن وسواعدهن يخضن في الطين والتبن وقد مزج بالماء من أجل بناء بيت،فقالت اعتماد : اشتهي أن أفعل أنا وبناتي كفعل هؤلاء النسوة، فما كان من المعتمد بن عباد الا ان بادر الى تلبية طلبها ولكن بطريقة البذخ والتبذير المفرطة التي كلفت خزينة دولته أموالا طائلة ،حيث أمر بالعنبر والمسك والكافور فسحق بماء الورد ليكون في هيئة الطين واحضر القرب والحبال لاعتماد الملكة وبناتها الاميرات فحملن القرب والحبال ورفعن عن سوقهن وخضن في طين العنبر والمسك والكافور .

وفي تلك الفترة، كان حكم الطوائف قائماً، وكان الصراع بين حكام الطوائف دائماً، وقد اكتوى ابن عباد بنار تلك النزاعات، وقد لجأ في آخر فترات حكمه إلى زعيم الموحدين في المغرب العربي ابن تاشفين ليحمي له حكمه ومملكته، غير أن الأمور لم تكن كما كان يريدها، فقد أخذ من عزه وسلطانه وغدر به، وأودعه في سجن أغمات في المغرب، ثم أخرج ليعيش مهاناً فقيراً، وأثناء سجنه في أغمات زاره بعض بناته في أحد الأعياد،فرأى ما وصل إليه الحال بهن وما تبدل من حسنهن وجمالهن وقساوة أيديهن حيث كنَّ يغزلن للناس بالأجرة فساءه الحال وقال قصيدة رائعة تحكي قصة كل من يغترُّ بملكه ولا يحسن التدبير:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا وكان عيدك باللذات معمورا

وكنت تحسب أن العيد مسعدةٌ فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعةً في لبسهنّ رأيت الفقر مسطورا

معاشهنّ بعيد العزّ ممتهنٌ يغزلن للناس لا يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعةً عيونهنّ فعاد القلب موتورا

قد أُغمضت بعد أن كانت مفتّرةً أبصارهنّ حسيراتٍ مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافيةً تشكو فراق حذاءٍ كان موفورا

قد لوّثت بيد الأقذاء واتسخت كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
لا خدّ إلا ويشكو الجدب ظاهره وقبل كان بماء الورد مغمورا
لكنه بسيول الحزن مُخترقٌ وليس إلا مع الأنفاس ممطورا
وكنت تحسب أن الفطر مُبتَهَجٌ فعاد فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً لما أمرت وكان الفعلُ مبرورا
وكم حكمت على الأقوامِ في صلفٍ فردّك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك في ملكٍ يسرّ به أو بات يهنأ باللذات مسرورا
ولم تعظه عوادي الدهر إذ وقعت فإنما بات في الأحلام مغرورا